(٦)

الإسلام وطبيعة الإنسان

لقد جاءت رسالة الإسلام مطابقة للطبيعة البشرية فى صورتها الحقيقية، لا لبس فيها ولا غموض. فلا هى تدعو الإنسان أن ينسى دنياه رغبة فى آخرته، ولا هى تدعوه ليزهد فى نعيم الدنيا ليحظى بجنة عالية قطوفها دانية، ولا هى تطلق نفسه ليعمل فى دنياه ما يحلو له وما يريد وما تسوله له نفسه ـ والنفس كما يقولون أمارة بالسوء ـ بل هى تدعوه كإنسان، وتنظر إليه كبشر يخطئ ويصيب، يحب ويكره، يحب المال ويجمعه، ويشح به ويكنزه ولا ينفقه، يحب البنين، ويحب الدنيا وزينتها وهو مع كل ذلك يرغب فى الآخرة ويتطلع إلى ما فيها من نعيم. استمعوا لرب الناس وهو يحدثنا عن الناس فيقول:

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ (آل عمران ١٤)

وإذا كان هذا هو رأى رب الناس فى الناس أيتركهم يعملون ما يريدون أم يدعوهم إلى الهداية والنور فى كتاب كريم يقول عنه سبحانه وتعالى:

ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (البقرة ٢)

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ (آل عمران ١ ـ ٤)

الٓرٰ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ (إبراهيم ١)

ويدعوهم هذا الكتاب الكريم إلى الهداية والصراط المستقيم، وتبدأ هذه الدعوة منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وجعله خليفته فى أرضه ليعمرها، ويستخرج كنوزها ويدير شئونها، فيزرع أرضها ويجنى ثمار ما يزرع ويبحث فيما هو كائن على سطحها وفيما هو كائن ببطنها من خيرات وكنوز، ويدعو سبحانه وتعالى الملائكة زيادة فى تكريمه وتعظيمه وبعد أن علمه الأسماء كلها ليسجدوا له فسجدوا.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ (البقرة ٣٠)

ومن آدم عليه السلام جاء البشر جميعا، فكلهم أبناء آدم وهكذا يدعوهم سبحانه وتعالى ليعبدوا ربا واحدا وإلها واحدا هو الله الواحد الأحد. وما ذلك إلا ليكون البشر جميعا سواء لا فرق بين هذا وذاك، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فرق بين شرقى أو غربى فكلهم من آدم الذى خلقه الله ليكون خليفته فى أرضه، وهكذا كانت دعوة القرآن الكريم دائما للإنسان «يا بنى آدم» تذكرة بهذا الأصل الواحد الذى لا خلاف فيه ويحذرهم ربهم فى نفس الوقت من الشيطان حتى لا يصيبهم ما أصاب آدم عليه السلام.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ (الأعراف ٢٧)

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾

(الأعراف ٣٥ ـ ٣٦)

وهكذا كانت دعوة الإسلام للبشر جميعا بنداء واحد يجمعهم كلهم، ولا يستثنى منهم أحدا. فما من إنسان إلا وهو ابن آدم، وآدم خليفته فى الأرض. ولا يقتصر خطابه سبحانه وتعالى على هذا فقط بل يخاطبهم مرة أخرى، ويدعوهم بإنسانيتهم التى يعتزون بها وتميز الإنسان عن سائر الحيوان، وما أجمل أن يكون الإنسان إنسانا. والإنسانية هى الصورة الحقة الجميلة للإنسان الذى خلقه الله فأحسن خلقته وسواه فأحسن صورته وعلى كل مخلوقاته ميزة وكرمه ثم السبيل يسره استمعوا إليه سبحانه وتعالى وهو يقول:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ

(النساء ١)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ

(الحجرات ١٣)

وما دام أكرم الناس عند الله أتقاهم فهو يدعوهم جميعا سبحانه وتعالى إلى التقوى لتستقيم الأمور وتستقر العدالة والمحبة بين الناس وتنتظم العلاقات بين البشر جميعا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

(آل عمران ١٠٢)

وكأنما أمره هذا للذين آمنوا أن يتقوا الله حق تقاته فيه من الصعوبة ما يشق على

النفس البشرية وفيها ما فيها من ضعف وحب للشهوات فيقول فى آيات أخرى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ (التغابن ١٦)

وهكذا يقول سبحانه وتعالى «ما استطعتم» وهو أعلم بالإنسان الذى خلقه وسواه وزين له الدنيا وسخر له ما فيها من خير ونعم وسبحانه وتعالى الذى يقول:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (البقرة ٢٨٦)

ثم يرشد الله الإنسان إلى ما يدعو به ربه وهل هناك أحسن من أن لا يحمله سبحانه وتعالى ما لا طاقة له به. فطاقة الإنسان محدودة وحواسه محدودة وما لا يطيق أكثر مما يطيق، وما يستطيع الصبر عليه أقل كثير مما يتعرض له فى الحياة، وعندئذ يخبره العليم القدير كيف يدعو فيقول:

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة ٢٨٦)

وهكذا تعم رحمة الله الإنسان فلا عنت ولا عسر ولا اغفال للدنيا ولا اهمال لما فطر الله عليه الإنسان وجبلت عليه روحه بل يسر وسماحة وإلا فمن يرحم الإنسان ان لم يرحمه الرحمن، ومن يغفر للإنسان إن لم يغفر له ربه الذى كتب على نفسه الرحمة والغفران، وخلق الدنيا كلها وسخرها لخدمته ولا يذهبن الظن بنا إن الإسلام يترك الإنسان فى دنياه يعيش فى نعيمها ويتمتع بما فيها من نعم وزينة دون قيد أو شرط ولكنه يدعوه ليعمل وجعل قيمة الإنسان بمقدار ما يحسن من عمل وأن الجزاء

من جنس العمل فمن عمل عملا صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها والعمل بقدر ما هو واجب فهو شرف ونعمة لا يحس بها إلا من حرم تلك النعمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا، فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

(البقرة ٦٢)

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

(النحل ٩٧)

ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

(سبأ ١٣)

قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

(الأنعام ١٣٥)

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

(آل عمران ١٩٤ـ١٩٥)

فهو سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الكريمة يطلب الإيمان والعمل فالمؤمن بالله لابد وأن يعمل فالإيمان وحده لا يكفى، ومن يعمل لدنياه فقط لم يصل الى مرتبة الإيمان التى يريدها الإسلام. ومن ترك الدنيا وزينتها ونسى نصيبه منها ولم يعمل بقوله تعالى:

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا (القصص ٧٧)

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

(المؤمنون ٥١)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

(البقرة ١٧٢)

لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ (المائدة ٩٣)

* يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(الأعراف ٣١ـ ٣٣)

ويقول صلوات الله عليه: «إن الله تعالى لا يقبل إلا طيبا، وأنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين».

ويقال أن أناسا جاؤا إلى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهن عن عبادته وقد قال واحد منهم أنه لا يأكل اللحم أبدا. وقال آخر: أنه لا يتزوج النساء. وقال ثالث: أنه لا ينام على فراش، وهكذا كما كانوا يظنون رغبة فى الزهد وتقربا من الله، وزيادة فى العبادة ولما عرف النبى أمرهم خرج إليهم غاضبا وقال: «ما بال قوم

يقول أحدهم كذا وكذا وإنى لأخشاكم لله وأتقاكم ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» ويقول صلوات الله عليه أيضا: «إنما هلك من قبلكم بالتشدد شدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع فاعبدوا الله ولا تشركوا به واستقيموا يستقم بكم».

وهكذا يطلب الإسلام من المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يكون بشرا سويا لا ملاكا سماويا يعيش على الأرض، ولا يسبح فى عالم الفضاء، يسعى لرزقه ويأكل من عمل يديه، ويجوع ويشبع، ويشقى ويسعد، يتزوج ويجمع المال، ويبنى القصور ويملك الأرض ولكن الله سبحانه وتعالى ينهاهم فى نفس الوقت عن الغنى الفاحش والترف الذى ينسى الإنسان نفسه فينسى ربه، ويظن أنه على كل شئ قادر كيف لا وخيرات الدنيا كلها ملئ يمينه إن شاء أعطى، وإن شاء منع. ويحدثنا سبحانه وتعالى عن قارون الذى كان من قوم موسى والذى أتاه الله من الكنوز ما أن مفاتحه لتنؤ بالعصبية أولى القوة إذ قال له قومه:

لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

(القصص ٧٦ـ٧٧)

ولكن قارون تأخذه العزة بالإثم وينسيه غناه ربه فيقول: (أنما أوتيته على علم عندى) وينسى أن الله قد أهلك من قبله من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا. ويخرج قارون على قومه فى زينته فيقول الذين يريدون الحياة الدنيا (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) ولكن الذين أتوا العلم يقولون: (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون). وهنا يأتى عذاب الله وتأديبه لمن طغى وتكبر وأنساه الشيطان ذكر ربه فيخسف الله به وبداره الأرض ويصبح عبرة لمن كانوا يتمنون مكانه بالأمس فيقولون:

وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ (القصص ٨٢)

ويقول سبحانه وتعالى:

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

(القصص ٨٣)

ويقص علينا سبحانه وتعالى قصة صاحب الجنتين الذى قال لصاحبه وهو يحاوره:

أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

(الكهف ٣٤ـ٣٦)

فيقول له صاحبه وهو يحاوره:

أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

(الكهف ٣٧ـ٤١)

وهكذا كان عاقبته أن:

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾

(الكهف ٤٢ـ٤٣)

وكأنما المال دائما إذا وضع فى غير موضعه أو إذا نظر إليه صاحبه نظرة غير تلك التى يجب أن ينظر إليه بها فلا هو شاكر لربه على ما أعطاه ظنا أنه إنما أوتى ذلك المال من عمل يديه هو لا من فضل الله، وهكذا يكفر برسل الله ويجاهر بكفره وعصيانه معتزا بماله الذى لا دوام له ولا استقرار استمعوا إليه سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن هؤلاء المترفين:

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ (سبأ ٣٤ـ٣٥)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ (الأنبياء ١١ـ١٥)

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾
(الزخرف ٣١ـ٣٢)

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾
(المؤمنون ٦٤ـ٦٦)

وليس معنى هذا أن الله ينهى عن الكسب الحلال فهو حق للإنسان ومن غير المعقول أن لا يحرم الله الزينة التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ثم لا يدعوهم إلى العمل والكسب. استمعوا إليه سبحانه وتعالى:

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ (الجمعة ١٠)

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ (الملك ١٥)

ويريد الله بالرزق الحلال الكسب الحلال فلا ربا ولا استغلال لمعدم محتاج وإلا فيأذنوا بحرب من الله ورسوله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ (البقرة ٢٧٧ـ٢٨٠)

حتى إذا جمع الإنسان مالا ورزقا حلالا قال له:

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ (الإسراء ٢٦ـ٢٩)

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

(البقرة ١٧٧)

وهكذا يضع الله لصاحب المال حدودا فعليه أن يعطى ذوى القربى حقهم والمسكين وابن السبيل ويطلب منه فى نفس الوقت أن لا يبذر تبذيرا ثم يقول له لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. وهكذا يضع القرآن الكريم الأسس المتينة للقواعد الإجتماعية والاقتصادية فللقريب الفقير حق وللمسكين حق ولابن السبيل حق، ولصاحب المال نفسه حق ولكن عليه ألا يبذر ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا يبسطها كل البسط بل عليه أن يبتغى بين ذلك سبيلا، حتى لا يقعد ملوما محسورا. ولا يسمح الإسلام أبدا لمن أوتى المال أن يكون ماله هذا عونا على الظلم وأداة يستعملها للبطش والبغى ولكنه يقول:

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

(البقرة ١٨٨)

وإذا كان الإسلام يدعونا إلى البذل والعطاء فهو ينهانا عن الشح الذى يمنع ذوى المال من التراحم والبذل والعطاء ومساعدة الضيف ومد يد المعونة للمحتاج:

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(الحشر ٩)

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ

(آل عمران ١٨٠)

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إياكم والشح فإنما هلك به من كان قبلكم. أمرهم بالقطيعة فقطعوا. وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

ويقول صلوات الله عليه فى حديث آخر: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم».

ويعتبر القرآن الكريم إطعام الفقير والمسكين والعطف على اليتيم والتواصى بالصبر والمرحمة عقبة وما أعظمها عقبة حتى إذا استطاع الإنسان أن يتخطى تلك العقبة كان من أصحاب الميمنة.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ (البلد ١١ـ١٨)

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ (الماعون ١ـ٧)

ويدعو الإسلام ذوى المال للبذل فى العطاء لتدعيم قوة المسلمين حتى يستطيعوا أن يردوا كيد المعتدين.

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (الأنفال ٦٠)

أما الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله وآثروا الشح على البذل والعطاء فيقول عنهم سبحانه وتعالى:

وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(التوبة ٣٤)

كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

(الفجر ١٧ـ٢٦)

ثم فلنستمع إلى هؤلاء الذين لم ينفقوا أموالهم فى سبيل الله عندما يسألون:

مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾

(المدثر ٤٢ـ٤٤)

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

(سورة الأعراف)

obeikandl.com